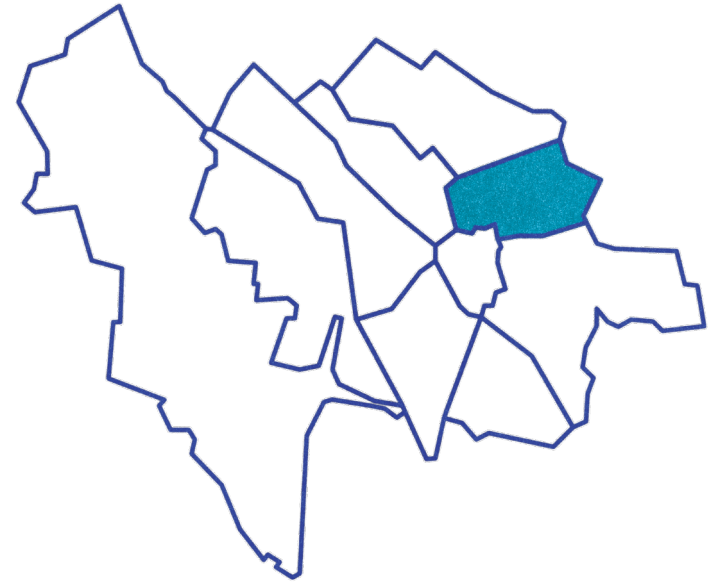




NOORDOOST

Bakr Al Jaber

القفز على الزنزانة

**MOOIE
WOORDEN**

ILFU



أنا

أكره الجدران

أكرهها جداً

اسألوا طيراً عالقاً في غرفة

يقول السجن للحرية... احبسي فقد تعبت

تقول له: اترك الحديد والجدران... واتبعني

لأريك كيف أسامح

حين يغلق السجن مزلاج بوابته

يدقُ مسماراً في نعش سيده

وآخر في قلبه هو

وثالثاً في صدر المسافة

كم مسماراً آخر نحتاج؟

بنينا حيطاناً لتحميننا

صرنا نحميها ونموت لأجلها

جدار الخوف الذي هدمناه

ها نحن الآن نعيده حجراً حجراً

اسمنت أحمر وأحجار من جماجم

سيكون معلماً يزورونه من كل مكان

لو كان للحزن قلعة

لحملت فأسي

وتبعت أمهاتي لأهدمها

لكن البحر له

والفؤوس حديد

تركْتُ أخي نائماً في غرفته في برلين

فكيف أجده أمامي الآن

في محطة القطار المركزية

حاملاً أكياساً كثيرة... وعلى رأسه الطير

ألم يكن قد وصل منذ بضع سنين... وبنفس المشهد

نحن اللاجئين بشقينا... متحصّرين وغير متحصّرين

بعيوننا الزرقاء والسوداء

نتعامل مع المستقبل على أنه مزحة

ومع الماضي على أنه حاضر

ونسير

لا أعلم تماماً كيف وصلت إلى هنا

ثمة تفاصيل تغيب عن البال... لكنني وصلت

ووجدت حبيبة أعادت تعريف الأشياء

وجعلت سؤال الآخرين عمّا إذا كنت أريد العودة إلى بلدي فيما بعد

غير مهم

لا أشعر معها بأنّي متهم

وهي لا تتوقع أن أجيبها عن أي سؤال يخطر في بالها

عن الشرق والعرب والجنوب

وكأنني في امتحان بكالوريا

-حبيبتي -وهي من داخل السور

حضنتني وقالت خذ وقتك يا حبيبي... سأكون هنا

فرحت أبتر الزمن كيف شئت

أقطع الماضي وأعلّقه أمامي كجزّارٍ محترف

أشقيّه فأنزعه منه العظم

ثم أعرضه وراء الفاترينا مع ختمه الأخضر

”هذه الخراف رَعَتِ الخوف“

أقصّ الحاضر وأرميه للقطط

لأصل المستقبل وأجادله

ألم نخبرك بأن الطاغية سيصل؟!

ألم نصرخ منذ زمن بأنهم واحد!

ثم أهرول عائداً إليها

كرمانةٍ تفرّطين حبّاتها على مهل

كان قلبي بين يديك

وكان النوم بعيداً... بعيداً جداً

فلنتحدث

هل أحدثك عن النساء أم البلاد؟

هل أحدثك عن الحرب أم القتل الذي أعرف؟

عن جدتي أم عن أكياسها؟

عن الشيوخ أم رائحة مسابيحهم؟

عنك أم عني؟!

هل صحيح بأننا نملك حياةً واحدةً فقط... لا أعتقد

أنا كلما قَبَلْتُك ولدتُ من جديد

أراكِ بفستانك الصيفي

فيختلُّ كل شيء

وأحب الطريق والطريقة والصيف ونظارتك الشمسية ومحل الأغراض المستعملة الذي
اشتريت منه الفستان

والفتاة التي ارتدتِ الفستان أولاً

والله الذي أخرجك من مخدعكِ في تلك اللحظة بالذات

لأنك أكّد من أنني قابعٌ في حبكِ

وأن هذيانِي باسمكِ حين يختلط النوم بالصحو

ليس خبط عشواء

أنت ندبةٌ في كتف الله

تجعله يبدو أكثر وسامةً وأنقص اكتمالاً

مما يجعل الشهوة تمشي في الأرجاء

أراكِ فيطمئن قلبي الفزعُ

ها أنت ذا بكامل روح الله بكِ

وكأن نفخته لم تبرد بعد

وبكامل بساطة المشهد وحزن المواويل وفرح الأغنيات

الآن يستطيع المهزوم أن يكمل جولاته فهو لم يخسر بعد

سوى عمر

وأمامه الكثير ليصعده

ليس ذنبي أنك خفيفةٌ كحجل

وأني ثقیلٌ كزنزانة

ليس ذنبي بأنّي ألهث حين نسير معاً

أما أنت فتجدين وقتاً لدوزنة طقطقة كعب حذاءك

ووقتاً للدندنة

وتضعين في جدولك المزدحم وقتاً للعب الرياضة

ووقتاً للرسم

أما أنا فأتعثر بشيئين يتدليان بين رجليّ، وبشمسيّة في يديّ، وبنظاريّ ملوثة وصدرٍ يصدر
ضجيجاً

وبجدوليّ فارغ لكّي لا أجد فيه وقتاً للنوم

ليس ذنبي أن الأرض إن رأتك اهتزّت فرحاً وأنبتت

وأنها إن رأتنِي شحبت وتملّحت

وليس ذنبي أنك تصادفين الحساسين في طريقك كل صباحٍ

وأني أصادف الغربان والجرذان أينما ولّيتُ وجهي

هذه كلها ليست ذنوبي

فلماذا تقبّليني إذأ؟

الفرح الذي أنا ضربه

الحزن الذي أنا أمّه

الحنين الذي أنا ابنه

والموت الذي أنا عدوّه

الليل الذي أنا فيه عواء ذئب

والموسيقى التي أنا رفيقها

الماء الذي أنا برودته

والنار التي أنا سعيها

والوقتُ الوقت، الوقت الذي أنا مداه

المنتهى والجنان

قلبي، النبي الذي ما انعصم

والموج الذي يسبح في رأسي فلا أغرق

والسماء التي لنا

كلها تودي إلى الصمت والتفكر

فأطير

تركت كل شيء خلفي

أمهاتي... أبي... إخوتي... أصحابي الكثر... أصدقائي القلائل... طبقي المفضل... مالي القليل

وجئتكم... يدلني إليك قلبي لا أنفي

أنا هكذا أشم رائحتك بقلبي

هذا ما يفسر أنني انتهيت إليك... وصرت هنا

إلا أنهم وحين وصلت أجلسوني في صفٍّ وشرحولي ماذا تعني الديمقراطية وحرية المعتقد

والتعبير

وكان أهلي لم يموتوا من أجلها

لا تعطوني سيفاً لأقطع رأس المسافة

ولا وحدة لها صدرٌ لكي أنام عليه في الليل

لا تعطوني بلاداً مريضاً ولا أخرى هرمة كما أنني لا أرغب في بلادٍ قاسية

لا تعطوني شباكاً فأنا صيادٌ في غاية السوء

لا تعطوني نجوماً فأنا لا أحب الجهات

ولا فرساً فأنا مهوٍ في السير على قدمي

لا تعطوني أي شيء

لا أريد منكم شيئاً

فقط دعوني وشأني

أنا المهر المتعب

الذي وصل إلى Paardenkathedraal وحيداً

لكي يرتاح بعض الشيء

فهام بدل أن ينام

لأن المدينة مغريةٌ وصامتة

في الأفق صحراءٌ من السحب الكثيفة

وأنت ترمح... يا فارس الأرض الهباء

أرض أرضك صلبةٌ

أرض خيلك هسَّه

والخيل تنثر ثلج دنياهم

حوافرهما سماء الآخرين... أنت خليلها

والشمس حتفك يا حصانك

في زاوية بعيدة

ثمة ثملٍ ينتحب

تحت ضوءٍ خافت

وسماءٍ من عفن

صنبور المياه في غرفته الحقيرة

بات يذرف الدموع معه

خشية أن يموت من الوحدة

الريح الريح يا أبناء أمي

هذا ما قاله المهاجر الخمسيني

لا أصدقاء تتعكز عليهم

الريح الريح يا بني

رغم أنني منذ تسع سنواتٍ خرجت من غرفة في دمشق

فيها مروحة سقف

إلا أنني وإلى اليوم كلما وقفت على سريري

أخفضت رأسي بحركةٍ لإراديةٍ

خشية أن تضربني

هي لا تقصُ رأسي... وأنا لا أسمع صريها

المروحة لا تضربني... إنها الذاكرة هي التي تطعن في الظهر

يُعرف العاشقون بسيماهم

المهاجرون أيضاً... واللاجئون

الوحيدون الذين تشم رائحة وحدتهم

قبل أن تراهم

نكتب عن الحقد لكي نستطيع أن نلقى التحية على سائق الباص في الصباح

نكتب عن الموت لكي نستطيع الحياة

نكتب عن الضحايا لكي لا ننسى ضحكاتهم

نكتب عن الحب لكي نستطيع أن نلعن الطاغية ونحن نشرب الشاي ونطفى السجائر

نكتب عن القنابل لكي نطلق الضحكات

وعن الأسوار لنستطيع القفز عنها

نكتب عن الأصدقاء لكي نغلق الباب على الوحدة

وعن الضوء لكي نستطيع النوم

نكتب عن التاريخ لنُبقي اليوم حياً

وعن الماضي لكي نتعرف على أنفسنا في مرآة الصباح

نكتب عن الوطن لكي نستطيع أن نضم حبيباتنا إلى صدورنا دون خوف

وعن القمر لكي نحلم

نكتب عن الثورة لكي نبقي على قيد الحياة

وعن السجون لكي نركض

نحن لسنا هواة حزن

نكتب عنه لنضعه على طرف الطاولة ونضع فوقه الأغنيات

نطلق كؤوس الأصحاب ونقرع الضحكات

بصحة من ذهبوا لنبقى

لنستطيع الرقص وهم راضون عنا

نغني للنجوم... نحب الله... نحتفل باللغة... ونفتن بالجمال...

ليل الخير على من يسمعون صوت الرصاص في خلفية رؤوسهم

وعلى من يسمعون صوت الرصاص في الشارع المقابل

ليل الخير على لحظات الخوف ونشوتها عند التذكر وبعد أن ننجو

ليل الخير على البيوت الواقفة والبيوت التي استراحت

ليل الخير على ركامها

على أشرطة الكاسيت التي كانت في السقيفة التي أصبحت طابقاً أرضياً

ليل الخير على القطط مفقودة العيون

ليل الخير على الثوار والجرحى...

ليل الخير على من استعمرونا ثم لحقناهم

ليل الخير على الخوف مع الجماعة

ليل الخير والخوف على من يخاف وحيداً

ليل الخير على المسجلات التي لا تنطفئ

وعلى الصبايا اللواتي أحببنا

كمن يتعكّز على ظلّ الجدار فلا يسقط
هكذا...

أتعكّز على ظلال الأشياء
فلا تخذلي...

أنيّ لأغرؤكم

كان قراراً أخلاقياً أيضاً
اتخذناه أنا وإخوتي وقررنا الغزو
لنعلمكم الطهي

عبي الرجل الأسمر حملنا على ذلك

The non-white man's burden

التميمة التي ألبسني إيّاها الجي في الجنوب

فقدت سحرها في الشمال
خلعتها ورميتها في نهري.. ففاض

الجنّ أناسٌ بجوازاتٍ سفرٍ أوروبية
لا أحد يوقفهم
ويظهرون حيث أرادوا

حين أستيظ صباحاً
أجد نفسي معلقاً في الهواء
بين الملكوت والأرض
بين البستان والورطة
بين الرحلة والواجب
بضع أشبارٍ فوق السرير لا أكثر

لحظة الوعي هذه تربكني
فأهوي كما يهوي ستيف أوستن على خصمه
وأبدأ يومي في الحلبة
لست مخبولاً... هذا ما يحدث كل يوم

هل لديك مليون؟!
مليون واحد فقط
تحتاج مليوناً واحداً لا غير
لتسكن هنا...
قال لي العم الستيني

والله يا عم لو تعلم كم من المال عندي في حساب التوفير

لمت من الضحك

ليس لدي أي مشكلة

في أن يكون عندك جدران

إن كانت أبوابك مفتوحة بحق

مشكلتي أن لا أرى جدراناً

وتكون كل أبوابك مغلقة

أن تربت على كتف الجمال طالباً منه الاعتناء بنفسه

أن تربت على كتف الرقص طالباً منه ألا يتوقف

أن تربت على كتف الغياب طالباً منه الرحيل

أن تربت على كتف الأغنيات طالباً منها أن تواصل الطيران

أن تربت على كتف الحقيقة طالباً منها ألا تطيل الغياب

أن تربت على كتف الموت طالباً منه أن يأخذ أعداءك لا أحبابك

أن تربت على كتفك طالباً منك أن تواصل المسير

كل ذلك يجعل الحياة أجمل

أن تضحك على البرد بأغنية

على البعد بطابع بريد

على الأيام بالأصدقاء

أن تضحك على الحب بمشاريع الأصدقاء

على الأصدقاء بمشاريع الحب الجبانة

أن تضحك على البيوت بسجادة من آيكيا

وعلى الشرق بطاولة زهر مصنوعة برداءة

أن تضحك على العمر بالسفر

وعلى الأوطان بالمقاهي والأمنيات

أن تضحك على الفراق بالعتاب

أن تضحك بالبكاء على الموت

وبالشكوى على التعب

هذا يجعل الأمور على ما يرام

تغير الجدران ألوانها حسب مزاجي

تصبح بيضاء حين أغضب

سوداء حين أحب

حمراء حين أنام

تتلاشى إذ أقبلتك

تعود إذ تغلقين الباب

ظلي أثقل من مقبرة

وأخف من فراشة ملونة

هل هذا ما يفعله الشوق؟

أم قطع المسافات بمشرط صدي

أم أنها راحة المسير باتجاهات ثلاثة

لا رابع لها

أم أنها راحة التخلي عن المواعيد والاكتفاء بالضد

لا أحد يعلم

سوى الماء المتبخر الآن من ال Singel الذي يمر بجاني

عالياً يصعد... ومن علي سيهبط...

هل قطرات المطر في حيز واحد أخوة أم أعداء؟!

لم يجبني الماء

كان على البشرية أن تدخل جحرها

لأخرج أنا وأحدنكم

لست عزافاً ولا دجالاً

أنا ميت عادت له الروح

فترك أثقاله وركض ليخبركم

أنها ممكنة... الحياة ممكنة

فلا تهلعوا...

ولا تموتوا قبل أن يأتي أجلكم

هل رأى منكم أحد قطي؟

هل يعلم أحد منكم لمن هذا البسكليت؟

أحدكم نسي أضواء سيارته، ستفرغ البطارية حتماً

أما هاتفي

أنا هاتفي لا يرن هكذا... بل يهلع مع كل إشعار

رغم أن ال Zeehelden هناك

إلا أن بابلوا نبرودا هو من يحرس المكان في الحقيقة

هم أصبحوا أبطالاً

لكن أحداً لم يسألهم كيف؟

الروائح مفاتيح المدن

والشفاه مفاتيح الحب

الصمت مفتاح الليل

والدمع مفتاح القلب

لم تعرفني المدينة اليوم

ولم تخف مَيّ

لم تنظر في عينيّ... ولم تهرب

المدينة هذه لم تنتبه ليّ اليوم

وهو أمرٌ يدعو للريبة

تجاهلت غولاً يمشي في شوارعها

هل عاد الغول إنساناً؟

أم أن المدينة تعودت الغيلان؟

في الحقيقة

أنا بدأت أفكر في معنى الوطن وأتعرف عليه

هنا...

بعيداً ومن وراء حجاب

ربما عليّ حقاً أن أرحل مجدداً

لأشعر بأنيّ هنا والآن

في وطنٍ ما

كما يعير مهاجرٌ مهاجرًا قدّاحته على رصيف المحطة

أعير الحياة الأمانى... ونبتسم...